ملامح الفكر الديني في بلاد اليمن القديم

ماجد احمد علي

أ.د.عادل شابث جابر

ملامح الفكر الديني في بلاد اليمن القديم

ماجد احمد علي

أ.د.عادل شابث جابر

الملخص :

عُرف الدين بأنه إيمان بكائنات روحية لها قوة فوق الطبيعة والبشر تؤثر في حياة الكون، فهي تسيير الطبيعة ، كما تسير حياة الانسان ، ولايمكن الجزم في حدود الدين، فهو في نظر الشعوب البدائية مفهوم يختلف عن مفهومه عند الشعوب والأقوام المتقدمة، ويختلف باختلاف وجهات النظر لكل من هذه الشعوب تجاه الحياة [١].

ولفظة دين (دينو) بابلية الأصل تعني القضاء ، ويذهب آخرون إلى أنها أرامية وتعني القاضي أو الحاكم[٢].

وللدين دور أساس في حياة اليمنيين لاسيما في البنية الفكرية للحضارة اليمنية القديمة، فالنقوش التي خلفها اليمنيون القدماء تحمل اشارات دينية ، إذ كل نشاط إنساني ذي أهمية معينة، كان موضوعاً لن لنقش يوكله صاحبه إلى حماية آله أو عدد من الآلهة[٣].

Summary :

Religion was defined as a belief in spiritual beings that have a supernatural power and humans affect the life of the universe, as it is the conduct of nature, as the life of man goes, and it is not possible to be certain about the limits of religion. Who are these people towards life?

The word Din (Dino) is of Babylonian origin, meaning judge, and others say that it is Aramaic and means judge or ruler.

Religion has a fundamental role in the lives of Yemenis, especially in the intellectual structure of the ancient Yemeni civilization. The inscriptions left by the ancient Yemenis bear religious references, as every human activity of a certain importance was the subject of an inscription entrusted by its owner to protect a god or a number of gods.

ملامح الفكر الديني في بلاد اليمن القديم

لقد كان للعقيدة الدينية اثر بالغ الاهمية في حياة قدماء اليمنيين الروحية والمادية ، كما كانت لها بصمات على شتى مجالات الحياة ، فهم يرون في الالهة مايجعلهم يتجهون لعبادتها والتقرب اليها من خلال قيامهم بطقوس شعائرية مختلفة، فيقدمون لها القرابين ، بل يقدمون لها احياناً حصونهم وابراجهم ومنازلهم وارضهم ، فهذا الورع الديني لم يتغلغل في نفوس الناس فحسب ، بل وفي حياة الشعب بأسره(٤)

فالدين قديم قدم الانسان نفسه ، واثاره واضحة في الجانب الحضاري وفي تحديد الاطر الاجتماعية للتقاليد والعادات وفي الحياة الاقتصادية والثقافية والسياسية ، لهذا فالدين من بين اهم النظم البشرية التي سيطرت على نفسية الفرد ، واخذت اشكالاً وصوراً متنوعة باختلاف الجماعات الإنسانية، او ضمن نطاق الجماعة الواحدة .(٥)

لذلك فان المصادر التاريخية الاصيلة ذات الصلة بالمجال الديني ، ولاسيما التي اكتشفت في العقود الثلاثة الاخيرة من القرن العشرين في عدد من مواقع عصور ما قبل التاريخ ، تبين المسار التاريخي للدين الذي تعود جذوره الاساسية الى ما قبل التاريخ(٦)

أولاً: نظرة عامة على التطور التاريخي للفكر الديني في بلاد اليمن القديم :

بقدر ما كان للزراعة دورها في التقدم الحضاري اليمني قديماً، فنتيجة للاعتقاد حول تأثيرات الفلك في الزراعة والمحاصيل والأمطار، اعتقد اليمنيون بوجود آلهة كوكبية فلكية تتصل بالزراعة وأعمالها، فكان القمر والشمس والزهرة ، والمعبودات الرئيسة – فضلا عن وجود الهة اخرى (٧)

كان لكل شعب أو قبيلة يمنية إله قومي خاص يعدونه حامياً لهم ، ورابطة تربط بين وحدات المجتمع، وقد ركزة اعداد كبيرة من النقوش المسندية التي تركها اليمنيون القدامى في مناجاة آلهتهم لمباركة زراعتهم ومحاصيلهم وجعلها زاخرة بالثمار والغلال، وسقيها بالغيث وحمايتها من الأوبئة والأمراض، وتقربوا إليها، وربطوا بينهما وبين مختلف المناسبات والأحداث، ولقد تميزت هذه الآلهة بالتعدد والكثرة (٨).

أن المعتقدات الروحية تعكس بنية المجتمعات البشرية، وهذا يمكن أن يفسر السبب في أن الحضارة المعقدة لجنوبي جزيرة العرب كانت تمتلك مجمعا من الآلهة هو الأكثر تطوراً عند العرب ، مع أسماء أكثر من مئة آله ، تبرز في النقوش الباقية، مع أن كثيراً منها ربما يمثل جوانب مختلفة للإله نفسه ، وأن هذه الأرباب الحامية أدت دوراً اجتماعياً وسياسياً حيوياً تمثلت بعبادتها التي أفادت بكونها وسيلة لتمسك الشعب وولاءه للدولة وقامت بوظيفتها كتعبير للإرادة والنشاط الجماعيين(٩).

ان مسار التطور الديني لدى اليمنيين القدماء تتمثل بما يأتي:

١- المعتقدات الأسطورية والدينية لعصور ما قبل التاريخ.

٢- عبادة الأفلاك الطبيعية.

٣- الانتقال إلى التأليه الغيبي.

أن أقدم الشواهد الآثارية التي تمثل المعتقدات الأسطورية ، أو الدينية في الرسوم ترجع إلى العصرين الحجري الحديث والبرونزي، وأن مسارها التاريخي يبدأ بما يسمى بالآلهة المحلية، إذ بدأت هذه المعتقدات ، عندما بدأ الناس بعبادة الآلهة قبل ظهور الكيانات السياسية اليمنية، أي عندما كانت القرية أو مجموعة قرى متجاورة تمثل وحدات سكانية متماسكة اجتماعياً ، أو اقتصادياً ، وذات هوية ثقافية واحدة(١٠).

كان لكل قرية أو مجموعة متجاورة من القرى آله من الذكور أو الإناث، وبينما كان لكل آله ما يناظره من الظواهر الطبيعية، كالشمس أو القمر وعالم ما تحت الأرض، أو يرتبط بنشاط معين كالزراعة أو الحروب، وما دام هذه الاله يوفر الرفاهية لرعيته فأن سلطته سارية عليهم وكانت سلطته لا تتعدى حدود منطقة معينة، وربما كانت الآلهة لا تأبه للصلوات التي تقام خارج تلك المنطقة (١١).

ان المسار التاريخي للديانة اليمنية مشابه لما مرت به المجتمعات البشرية في التطور الديني، في أنحاء شتى من العالم القديم، ويرى الشيبة(١٢) أن هذه الآلهة اليمنية ربما تكون في وجودها أقدم بكثير عن الحقيقة التي ذكرت فيها أسماؤها أي حقبة الممالك القديمة ، وفي هذا السياق يقول: (إذا لا يعني أن ترد اسماؤها في الكتابات المعاصرة للحقبة التي تتحدث عنها لأنها عرفت في هذه الحقبة الزمنية، أو ظهرت لأول مرة من لا شيء (١٣).

ولا يمكننا التعرف بشكل دقيق عن المرحلة الأولى للديانة اليمنية القديمة لقلة المصادر، لذلك يجب معرفة معطيات المرحلة الثانية من المسار التاريخي للتطور الديني عن بقايا من أديان ما قبل التاريخ، منطلقين إلى ذلك من حقيقة ثابتة في الحياة الإنسانية تتمثل في أن التاريخ الإنساني لم يعرف مراحل التحول التجريدية التي ينتفي خلالها القديم نفياً تاماً وكلياً، وذلك لأن التحول لا يلغى أفكاراً وتطورات مختلفة عن المرحلة السابقة، بل يلغي سيادتها(١٤).

ومن خلال الرموز الحيوانية للآلهة الفلكية القديمة، يمكن القول إن ديانات عصور ما قبل التاريخ لم تمض بدون التأثير على المرحلة اللاحقة ، إذ إن هناك عدداً من الدلائل الرمزية الأسطورية مستوعبة فيها من أزمنة أقدم، والدليل ما حوته الرسوم الصخرية من معلومات حول الحيوانات المقدسة والتي عكست صوراً للعبادات الطوطمية، فقد أتخذ الثور رمزاً للإله القمر، والذي عبد بتسميات كثيرة منها المقة ، وعم، وسين وود وسمع ، كما أن الوعل كان رمزاً للاله ودّ ، وفي قتبان رمزا للإله عم كما كان رمزاً للاله عثتر أيضاً(١٥). أما ابن آوى فكان يصور في شكل حيوان خرافي، حيث كان ينتهي في طرفيه برأس طير ، وآذنين شبيهتان بأذني (ابن آوى)، وأن استخدامهم لتلك الرموز مرتبط بمرحلة التقديس الطوطمية التي تدل على اتقاء فكرهم الديني حيث جعلوها رموزاً للآلهة(١٦).و لأجل تفصيل ذلك:-

آ-الديانات الوثنية:

فيما يتعلق بالديانات الوثنية ، فيؤرخ لوجودها في بدايات من الالف الأول قبل الميلاد، وخلافاً لعصور ما قبل التاريخ، كان اليمنيون القدماء في ظل هذه العبادات الفلكية يعيشون في مجتمعات متعددة مؤطرة، ولكن في ضمن ممالك ، فكان لكل مملكة ألهاً وطنياً مذكراً ، يحمل أسماً خاصاُ ، وكان الإله الفلكي ، يشكل ركنا أساسياً في بنية المملكة ، إذ كان يعبر عن فكرة المملكة بثلاثة حدود ، هي الإله الوطني/ الملك/ الشعب، الأمر الذي يدل على محورية الدين(١٧).

إن هذا الجمع بين إلاله والملك والشعب في وحدة متلاحمة في الممالك اليمنية القديمة، وان كان تجسيداً لضرورة حياتية عكستها المحددات الرئيسة لانتاج الخبرات المادية

ومتطلباتها على الصعيدين الاجتماعي والإداري في السياسة والاقتصاد، إلا أنه كذلك يتفق وبنى المجتمعات الأخرى ، التي تزامنت وجودها مع حقبة الممالك اليمنية القديمة، فقد كانت المملكة فيها تتسم بروابط قوية مع الدين، وكان هذا التلاحم بين المملكة والدين عنصر مهم في تقديس واحترام القانون، وكانت هذه العلاقة تمثل الأرضية المناسبة الرمزية الخيالية والعقائدية، التي تتلاقى من خلالها الجماعات المتنوعة، وتحقق تجاوزها لتمييزها وتعدديتها، وتمثل هوية واحدة، لذلك كان الملك الاله رمز هذه السلطة المقدسة(١٨).

وقد شهدت هذه العلاقة تجليات عدة، فقد كان الشكل الأول لهذه العلاقة يتمثل في شكل المملكة ، إ ذ تجتمع في شخصية حكامها الصفات الروحية والزمنية، وكان يطلق على هذا النوع لقب (مكرب) أي المقدس.

وفي القرن السابع ق.م، ونتيجة حروب كرب آل وتر(١٩) التوسعية والتي كانت تحمل طابع البعد الوحدوي القومي، ظهرت التبدل في مضمون المملكة اليمنية القديمة، فبسبب الانتصارات العسكرية والانجازات العمرانية، برز مظهر الكف عن الجمع بين الكهانة ، والملك ، وترافق مع ظهور الملكية الخاصة، والتي تمخضت عنها الفرز الطبقي للمجتمع، لذلك اتخذت العلاقات بين السلطتين الدينية والزمنية صورة جديدة، جاوزت معناها الأصلي السابق، فبدل من علاقة التعاون والرغبة الطوعية بين أعضاء المجتمع والمملكة ، إلى علاقات السيطرة والخضوع، فكان المكرب يجمع بين الكهانة والسلطة، أما في عهد الملكية، فانفصلت السلطة عن الكهانة نتيجة للأسباب التي ذكرناها متمثلة بتوسع الأراضي وتكدس الثروات(٢٠).

وأفضل من شرح طرق وأساليب ظهور الملكية هو أ.غ. لوندين(٢١) إذ يقول: (عن طريق تعديل الواقع الشرعي القانوني لبعض الأراضي وعن طريق أخراج الأراضي خلال إعادة التقسيم، بإيجاد وضع شرعي قانوني جديد للأرض، فكانت إحدى طرق نشوء الملكية الخاصة للأرض، ملكية القبيلة (المجتمع المحلي) التي هي الشكل الأساسي للملكية في ذلك الوقت سواء كانت ملكية دولة سبأ كاتحاد القبائل، أو ملكية المدن –المجتمع المحلي– وفقا للنظام الإقليمي).

ويقوم مجلس الشيوخ بتوزيع الأراضي ، وقد تم عن طريق هذا الأسلوب في إعادة توزيع الأراضي ، رسوخ الملكية الفردية للأراضي، وبالدرجة الأولى ملكية النبلاء، ويبدو أن أملاكهم في البداية كانت أرضاً يملكها المجتمع المحلي، ويتمتع بها هؤلاء الأشخاص ، ثم بعد ذلك تم الابتعاد عن هذه القاعدة العامة وذلك بتكرار تحديد الأراضي مرتين أو أكثر يقوم الأشخاص ذوو المصلحة برسم الحدود، وهم إما مُلاّك وإما أشخاص تابعون للمُلاك[٢٢].

وعلى الرغم من التبدلات في مضمون الملكية ، لم تؤد إلى تفكك الصلات الوثيقة بين السلطتين الزمنية والدينية، بل إن الوحدة بينهما استمرت، وقامت السلطة الدينية خلالها بتأدية وظيفتها لخدمة السلطة الزمنية ، لذلك كان الكهنة يشكلون جزءاً لا يتجزأ من المملكة، وأن تقديس الملوك يمثل عنصر جوهري من عناصر تكوين السلطة وإقامة المملكة، وبذلك أصبح الملك يمثل الجانب السياسي والكاهن يمثل الجانب الديني بدون تفاوض بينهما[٢٣].

ب-اضفاء الشرعية الدينية على النظام السياسي:

تتكون اركان النظام السياسي في بلاد اليمن القديم على عدة مرتكزات ، تاتي بشكل متتابع وهي :-

١-الالهة :

٢-الملوك :

٣-الكهنة :

٤-المعابد :

كانت الآلهة تأتي على رأس النظام الديني والسياسي معاً، في العهود المبكرة للدولة اليمنية القديمة، في العهود المبكرة للدولة اليمنية القديمة، إذ كانت القبائل والشعوب تنتسب إليها ، والملوك اكتسبوا شرعيتهم منها ، بإدعائهم تمثيلها على الأرض، لذلك كان للكهنة المكانة البارزة والمقدسة ، لارتباطهم بها خدماً وواسطة بينها وبين الناس[٢٤].

ج-دور المعبد في الحياة العامة :

لم تحظ المعابد اليمنية قبل الإسلام، بالدراسة لتطور الفكر الديني عند الإنسان في حقبه التاريخية المختلفة، مقارنة بما حظي به الفكر الديني في الشرق الأدنى القديم ، ولاسيما

فيما يخص الوظائف الدينية لتلك المعابد، التي يكتنفها الكثير من الغموض، بسبب قلة المعلومات المستمدة من التنقيبات الأثرية ، وذلك لأن اليمن كانت بعيدة عن دائرة اهتمام بعثات التنقيب، عكس حضارات الشرق الادنى القديم كحضارتي بلادي الرافدين والنيل(٢٥).

كانت مواقع العبادة في البداية عند اليمنيين القدماء بدائية بسيطة لم تكن لتتجاوز في طبيعتها الأماكن العادية المكشوفة والخالية من السكنى، إذ كانوا يعتقدون أن المعبودات أنما تكون مستقرة وساكنة فيها، فهي إما موضع لنبع ماء وإما صخرة أو ما شابه ذلك، فعدّت المنطقة الواقعة حول ذلك الموضع برمتها موقعاً مقدساً تقام فيه الصلوات، وتجلب إليه العطايا والهبات ، ثم أخذ شكل موضع العبادة يتطور تدريجياً مما هو عليه من بدائي بسيط، إلى حال أرقى حينما بدأو يشيدون جدراناً تحيط بموقعه المقدس عندهم(٢٦).

وكان هذا الشكل المتطور نوعياً في بناء المعبد ، هو ما اتسم به معبد إلاله (المقة) في مدينة مأرب، ثم أصبح بناء المعابد يتطور أكثر فأكثر، حتى أصبح أشد تركيباً، وأجمل تشييداً، وأوفر جمالاً، كما استجابت هندسة البناء لمتطلبات الطقوس والشعائر الدينية المختلفة، إذ راحوا يقيمون الأعمدة الفخمة حتى صار المعبد في تصميمه البنائي وشكله الهندسي مربعاً، أو مستطيلاً، وإذا به يغدو في هيئته الفنية شكلاً معمارياً آخر في نهاية المطاف(٢٧).

ولصعوبة دراسة الوظائف الدينية للمعابد في اليمن القديم، فضلاً عن قلة المعلومات ، فهناك سبب آخر يتعلق بطبيعة النقوش التي لا تتطرق الى تلك الوظائف ، لكن هذه الاسباب لا تمنعنا من دراسة الهيكلية الدينية للمعبد، من خلال الوظائف التي وجدت فيها، لمعرفة اختصاصاتها ، وأول تلك الوظائف منها المكرب المشتق من الجذور الثلاثي (كرب) في اللغة اليمنية وتعني (جمع) وهو المجمع وهو لقب حمله رؤساء القبائل والأحلاف، وهو يتمتع بمنزلة، ومكانة عالية في بلاد اليمن القديمة، وكانت له عدة وظائف منها سياسية واقتصادية واجتماعية(٢٨).

أما الوظيفة الثانية ، فكان يقوم بها شخص يسمى الكبير، وهو مصطلح عام يشمل وظائف مدنية ودينية مختلفة، ووظيفته الإدارية لم ترق إلى مرتبة المكرب والوظيفة الثالثة ، يقوم بها شخص يسمى (رشو) بمعنى الكاهن يشترط على من يتولى هذا المنصب أن يكون

على ثقافة واسعة بالطقوس الدينية وأمور المعبد وضرائبه وأوقاته، وكلمة رشو قريبة الصلة بالفعل (رشا) في اللغة العربية الفصحى الذي يأتي بمعنى أعطى أو منح[٢٩].

أما القين ، فتمثل الوظيفة الرابعة من وظائف المعبد والشخص الذي يحمل هذا الاسم يكون مسؤولاً عن أمور المعبد الاقتصادية، أما الوظيفة الخامسة فهي وظيفة الشوع التي تعني تابع، أو نصير، أو خدم سيداً، وهذه الوظيفة مدنية ودينية، فكان من مرافقي الملك في أثناء الغزوات والحروب، أما الوظيفة السادسة فتحمل دلالات دينية[٣٠].

لقد حظيت المرأة اليمنية قديماً بعدد من الوظائف في المعبد، أهمها أنها كانت كاهنة عليا (رشوة) (مؤنت رشو) ، ومن وظائفها الأخرى تقلدت المرأة مناصب الكهانة العليا، وزواجها من الآلهة، كما ورد في أحد النقوش المعينية، إذ جرت مناسبة زواج كاهنة الإله عثتر[٣١]، ويعلل البعض ذلك إلى تأثر هذه الزيجات بما عرفته مصر القديمة ، ولربما هو تأثير مصري على بلاد اليمن، ولاسيما في عصر الدولة الوسطى(٢١٠ ق.م)[٣٢].

ومن المرجح أن هذه الوظيفة كانت لخدمة المعبد، من اجل أداء الطقوس الدينية، كما أن العديد من النساء كن يوهبن أنفسهن للالهة، ويعملن كآماء في خدمة المتعبدين ، وهذا ما يعرف بالبغاء المقدس، وقد أشار (ريكمانز) [٣٣] الى أحد النقوش اليمنية التي ذكرت ذلك حيث اشارت الى اهداء مجموعة من النساء إلى معبد قرناو، عاصمة الدولة المعينية من بعض الأشخاص الموجودين خارج المملكة ، تقدر بثمانين امرأة أجنبية ، ويبدو أن تلك الإهداءات بديلا عن ضريبة العشر التي تقدم للمعبد من سكان المستوطنات المعينية في الجزيرة العربية ، والمناطق الأخرى.

كما عملت النساء في العزف والموسيقى في المعابد، والتي تجري في أثناء تأدية الطقوس الدينية، وهذه الخدمة كانت شائعة في حضارات الشرق الأدنى القديم[٣٤].

وإلى جانب هذه الوظائف الرئيسة للمعبد، وجدت وظائف فرعية أخرى، ولكنها مهمة، إذ كان هناك مشرفون على جمع الضرائب الخاصة بالمعبد ، وأهمها ضريبة العشر، وكذلك إدارة أملاك المعبد، وهؤلاء يعينون من الكهنة، ويسمون في النقوش اليمنية القديمة "أرباي" ، إلى جانب ذلك كان لكل معبد سدنة، وحجاب ، وخدم ، يعملون على أظهار المعابد في الصورة اللائقة أمام الزوار، وهناك ما يسمى (شأم عنوق)، وهو اسم مركب يطلق على

جماعة من الناس التي سميت (سموسن) ويعني سدنة المعبد، وهناك وظيفة (منصفت) وتعني (نادم)، وهناك عمال وحراس وبوابين إلى جانب المتطوعين الذين يخدمون المعابد اليمنية(٣٥).

وكانت المعابد تقوم بمهام إدارية ، ولاسيما حفظ السجلات الخاصة بمساحات الأراضي، وتحصيل ضريبة العشر المقدس، وكانت هناك نسخة من بعض المراسيم الملكية، والعقود العامة، والخاصة محفوظة على جدران المعابد، كما كانت تقدم نذوراً كثيرة ومتنوعة للمعبد، وتنقش على مواد القربان، وغيرها من أحجار البناء الكلسية، كأن تكون قطعة من الأرض والبساتين، وكان الأثرياء يسجلون على أنفسهم حججاً، أو أوقافاً مع الكهنة ، يلتزمون فيها بأداء القرابين، أو يتوقع لهم الكهنة سوء المصير أن هم تخلفوا عن أدائها، وغير ذلك مما يعكس نفوذ المعبد(٣٦).

ومما سبق ذكره نستطيع القول أن ديانة اليمنيين القدماء في نشأتها وتطورها قد سادت في ضمن عملية تاريخية طويلة، كانت مرتبطة بشكل وثيق بالضرورات الحياتية ، والتطورية للمجتمع، ورأينا كيف أن الدين في كل مرة كان يتجلى في صورة بناء فوقي أيدلوجي يتماثل مع البيئة التحتية ، وبعض المظاهر السياسية، ولكن الدين منذ بدايته ، أخذ يكتسب استقلالية عن البناء التحتي، ويمكن ملاحظة ذلك مع ظهور ما يمكن تسميته بالتآليه الغيبي.

د-الغيبيات والسحر :

انتشر السحر في اليمن، كما هو الحال في حضارات الشرق الأدنى القديم، إذ دلت النقوش المسندية، وما اكتشفه التنقيبات الأثرية بما لا يدع مجالاً للشك على وجود السحر، وتوظيفه في الطقوس الدينية، فضلاً عن ماهية الرموز المستخدمة في ذلك ، وسبل الحماية منه، وقد ارتبط السحر ارتباطاً وثيقاً بالممارسات الدينية، ولكنه عُدَّ الشكل المتدني للدين والطقوس الدينية(٣٧).

ثانياً :الرؤية المقدسة للإلهة :

من أهم المظاهر الفكرية التي تعود إلى ديانة اليمنيين القدماء هو وجود نظام للآلهة في اليمن القديم، إذ يشير نلسن (٣٨)، "(أن مجمع الآلهة للشعوب السامية الجنوبية عبارة عن

مجموعة لا تنتهي من الآلهة الذين لا يربط بينهما رابطة ما)، وإن أسماء الآلهة ليست واحدة في كل الأزمنة المختلفة، وفي الأماكن المتباينة ، وأن بعض أسماء الآلهة تتكرر في أماكن متعددة، وفي عصور مختلفة، إلا أن الكثرة المطلقة من الأسماء نجدها تقتصر على مكان واحد، وإذا انتقلت شخصية الآلهة إلى جهة أخرى اتخذت أسماء أخرى"[٣٩].

ومن أجل معرفة وجود، أو عدم وجود نظام للآلهة في اليمن القديم، يجب معرفة المراحل الأساسية في التطور الديني لدى اليمنيين القدماء، وتوجد ثلاث ملاحظات مهمة تخص المسار التاريخي للتطور الديني من عصور ما قبل التاريخ وحتى نهاية العبادات الوثنية ، وهذه الملاحظات هي:-

١. من خلال الشواهد الاثرية ثبت وجود معتقدات لدى سكان اليمن في العصور الحجرية الحديثة ،وما تلته من العصور حتى فجر التاريخ ،وهذه الشواهد هي الرسوم الصخرية ، إذ ظهرت فيها شواهد تدل على أسباب عقائدية.
٢. في العصر التاريخي عبد اليمنيون القدماء الأفلاك السماوية مثل الشمس والقمر والزُهرة ، بتسميات مختلفة ، وصفات متعددة خلال ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً ، شهد فيها النظام الديني عدداً من التطورات، تجلت في تعددية الآلهة وظهورها في ضمن أنساق محددة[٤٠].
٣. وجود آلهة غير مشخصة، وذات دلالات معنوية مثل الإله (أنبي) ، والإله (حوكم) ،في قتبان ،وهو ما يمثل نقلة نوعية في تطور التفكير التجريدي على مستوى الحياة الدينية ، وإلى ذلك فإننا نلاحظ بعض المؤثرات التي من خلالها يمكن الافتراض بوجود نظام يربط بين آلهة اليمن القديم[٤١].

اما بالنسبة الى تسلسل الآلهة وفق أهميتها: يأتي الاله عثتر في مقدمة الدُعاء والتي وردت في المدونات النقشية اليمنية القديمة، في كل من الممالك اليمنية القديمة، وفي هذا السياق نجد أن الآلهة الرئيسة (القومية) لتلك الممالك، لا نذكر في هذه التضرعات ، إلا في المرتبة الثانية ، أو حتى الثالثة أحياناً، وأن هذا التسلسل يدل على وجود رؤية لدى اليمنيين القدماء لآلهتهم[٤٢].

ومن خلال فهم تصورات اليمنيين القدماء بشأن آلهتهم القديمة، أي طبيعتها، ووظائفها في حياتهم، فما نعرفه عن الشعوب البدائية كان لديها وعي ديني في عصور ما قبل التاريخ، فكان لابتكار الزراعة أثر مهم على المناخ العقلي، إذ كانت غلة الأرض هي محور اهتمام الإنسان في العصر الحجري الحديث(٤٣)، وما تلاه من العصور، وكان لسقوط الأمطار ونمو النباتات هو الأمر الذي لوحظ بطريق غير مباشر من خلال تأثيرها على حياة الحيوانات ، فأصبح هذا الأمر يعني الحياة أو الموت، ومن ثم سار الهدف الرئيس للطقوس ، وظهر ذلك في محاولة الإنسان القديم إسقاط الأمطار باستخدام السحر القائم على المحاكاة ، وبسبب الطبيعة التضاريسية المتباينة لليمن ، فإن للمطر أهمية كبيرة وهذا ما نراه بوضوح كبير في مكانة الآلهة (عثتر) لدى اليمنيين القدماء(٤٤).

كان الإله (عثتر) هو المسؤول عن الأمطار ، إلى جانب ذلك ، لديه وظائف أخرى تتمثل بالإله الحامي من القوى المعادية، والشفاء من الأمراض، ومنح الذرية الصالحة، ويرد في النقش (CiH544) بأنه كان يمنح الحياة للإنسان، ومع ظهور الوحدات السياسية في صورة ممالك كبيرة ، كانت أم صغيرة في اليمن القديم، كان الإله عثتر يقوم بدور سياسي، فقد كان يمثل آله المملكة، وصاحبها في الوقت نفسه، فالإله القمر لديه اسماء وصفات متعددة في كل الممالك اليمنية القديمة، يؤدي وظيفة التجسيد الحي للتماسك الاجتماعي، والأخوة بين أبناء الجماعات والأفراد، وهي الوظيفة الأساسية في مجمع الآلهة اليمنية القديمة(٤٥).

ويمكننا الاستنتاج من ذلك أن الإنسان بعد أن ضمن حياته وتغذيتها بالحيوية، والاستمرارية من قبل الإله عثتر، فإن ضمانة بقائه حياً كان يتطلب وجوده في ضمن نظام أو كيان اجتماعي معين، وكان الاله القمر هو الذي يقوم بحماية هذا الكيان أو النظام، وبذلك فالإله القمر يحتل المرتبة الثانية ، أما الشمس فلا يمكن الاستغناء عنها في المجتمع الزراعي، لذلك فالتقويم الزراعي لليمن القديم قائم على أساس حركتها الفلكية ، وكانوا يلاحظون وجود صلات لها بنضج الثمار، فضلاً عن ذلك كانوا يلاحظون أن الشمس في فصل محدد من السنة، أو في وضع معين، وبتوافقها مع النجوم ، تتسبب في هطول الأمطار التي هي المصدر الاساسي لري مزروعاتهم (٤٦).

لذلك كانت آلهة الشمس بالنسبة لعدد من الأقوام اليمنية القديمة بمثابة الآلهة الرئيسة، وهي تعبر عن الشخصية السياسية لتلك الأقوام، لذلك فإن وظيفتها هذه كانت تظهر بوحي من منازعات سياسية معينة، مما يضعها وفق هذا المنظور في صراع مع الاله القمر، فالنقوش المسندية اعطتنا دليل رمزي على هذا يتبين في صورة القتال بين الأسد والثور إذ كان الأسد يمثل الشمس والثور يمثل القمر(٤٧).

هنالك ثلاثة مستويات للإلهة :-

آ- الآلهة العامة: التي تتمثل بالإله (أيل) آله مشترك، لكل المجتمع السامي، وهو أقدم أسماء الآلهة القديمة كافة، وقد ذكر في نقش عثر عليه في مدينة هرم بالجوف مع آلهة أخرى، والاله القمر وهو الاله الذي عبدته كل الشعوب السامية في جنوب الجزيرة العربية وشمالها ، تحت اسم واحد هو عشتر، أو عشتار، وفي اليمن القديم أطلق عليه (عثتر) ، وهو مذكر عند اليمنيين، ومؤنث عند العرب الشماليين ، وأقاموا له المعابد في كل مناطقهم، وهو أحد الثالوث الفلكي المعبود لدى كل الساميين إلى جانب القمر والشمس(٤٨).

والصلة غير المباشرة بين (آيل) و(عثتر) تتبلور في كونهما يمثلان الإله الأعلى، أما الصلة غير المباشرة بينهما، فتتبين لنا أكثر من خلال وصف (هوفنر)(٤٩)، إذ تقول: ((إنه لمن السطحية بمكان الأدعاء بأن اليمنيين القدماء كانوا يعبدون الكواكب القمر والشمس والزهرة ، ولنا أن نرى ذلك بأن الكواكب المرئية في أحسن الأحوال هي صور شيء ما كائن، يقف ورائهما ،طالما أننا على الأقل نرى أننا نتعامل مع نوع من الأديان العليا التي ليست عن العربية الجنوبية، كما هو الحال في كل مكان)، وانطلاقاً من ذلك ترى (هوفنر) (٥٠) بأن أي حديث عن الآلهة اليمنية القديمة كالقمر وغيره يجب أن لا يفهم خارج سياق المعنى السابق.

ب- الآلهة السياسية: التي يمثلها القمر مثل (المقة) و(عم) و(ود) و(سين) ، وهي تقوم على أساس أبوتها للبشر، وأقرب ما تكون للتعبير عن وظيفتها السياسية في التجمعات والاتحادات التي يغلب على منظومتها الاجتماعية الطابع القبلي.

ج- الاله القمر في شكل الإله تالب ريام ، وتقوم العلاقة بينه وبين البشر، التي تدخل في نطاق سلطته السياسية والدينية على أساس التبعية، أي على أساس

الارتباط بالأرض ، وليس على أساس الاستناد إلى قبيلة ، أو قسم من القبيلة، ويمكن أن نرجح أن تكون الشمس في ضمن ذلك النسق أيضاَ[٥١].

ثالثاً: أثر المضمون الفكري على العقيدة الدينية في بلاد اليمن القديم:

توجد الكثير من الكلمات ذات الدلالات الاصطلاحية والمفهومية، التي استخدمها اليمنيون القدماء في معارفهم وممارساتهم الدينية، إذ تضم اللغة اليمنية الكثير من الكلمات ذات الدلالات الدينية ، يضم المعجم السبئي أكثرها، وسنأخذ بعض من تلك الكلمات أنموذجاً عن عشرات الكلمات ذات الدلالة الدينية منها: [٥٢]

أدم 433/12 ymn عباد إله

أ ف ل ك 5/16 R394 كاهن

أ هـ ل 42127/5 /C546 جماعة دينية

ب و ح 1.13 GhalNQ ذكر يقدم قرباناً

ح ر م C523/R447/69 .RA42A5 أحرم في حج نجاسة

ت رخ قربان محرقة

ب ث ت R4782/1 قدم قربانا للآلهة

ب ح ر 956/3 + C563 شق أذن الحيوان ليكون قرباناً

هذه المصطلحات والمفاهيم تعطي تصوراً عن المستوى الذي بلغه اليمنيون القدماء في التجريد الديني.

رابعاً: التأليه الغيبي:

يعد التأليه الغيبي أعلى سلم من أطوار التفكير التجريدي لدى الإنسان، وعلى ذلك فإن هذا النوع من التأليه شائع في تلك البلاد ، ويعكس مرحلة أعلى من تطور التفكير التجريدي لدى اليمنيين القدماء في مجال المعرفة الدينية، يمثل في الوقت نفسه أرقى أطوارها ، ويمكن تتبع الارهاصات الأولية لهذا النـــوع من التأليه لدى اليمنيين القدماء، إذ نجد مؤشراته الأولية في مختلف أطوار ومراحل التطور الديني لديهم على النحو التالي[٥٣]:

تؤرخ بدايات إضفاء صفات وألقاب على الآلهة الفلكية عند اليمنيين القدماء في مرحلة انتقالهم من التشخيص إلى المجرد ، من خلال إضفاء صفات ومعانٍ دالة على الآلهة الفلكية مثل (رحيم، وسميع، وعليم، وأنبي، وحكيم والإله ذو سموي)، وهذه الصفات كما تبدو وكما تدل معانيها في اللغة ، هي عناصر تجريدية خاصة بعيدة عن أي تجسيد مادي، بل إنها معان تجريدية نابعة من مشاعر الإنسان وتصوراته الذهنية الخالصة بدون أن تكون لها علاقة مادية بأي من القوى الطبيعية(٥٤).

إن الصفات مثل رحيم ، وسميع ، وذو سموي، وعليم وغيرها ليست صفات بصيغة أسماء ومعان تطابق الآلهة الفلكية في تجسيداتها المادية الطبيعية، بل إنها معانٍ تجريدية تتجاوز ما هو مادي شكلي إلى ما هو معنوي تصوري، أن هذا التجريد الذي منح الآلهة هذه الصفات جاء في مرحلة لاحقة، لم يكن متزامن مع بداية الاعتقاد بالآلهة الفلكية ، إذ تؤكد هوفنر (٥٥) ، "إن الإله القمر لم يكن يحمل ألقاباً في فترة حكم المكاربة، مما يدل عن أن هذا التجريد أستغرق سنوات من التأمل والتفكير للوصول إلى مرحلة متطورة نسبياً في اعتقاد اليمنيين القدماء بالآلهة"(٥٦).

خامساً : الفكر التوحيدي :

قبل مرحلة الاعتقاد بالآلهة الفلكية، وفي إطار تعدديتها ، وبعد هذا الاعتقاد بالآلهة الفلكية، وتطورها انتقل الانسان إلى التفكير بأسلوب تجريدي، والتجريد بمثابة خطوة أولية نحو التوحيد ، إذ أطلق على المعبود (رب السماء) ، ثم (الرحمن رب السماء والأرض)، كل ذلك بعد مرحلة جنينية لفكرة وحدانية الله، مما ساعد لاحقاً على التقبل السريع للديانات التوحيدية ، وكانت معرفتهم حدسية ، وهذه بطبيعتها لا يقينية أيضاً، إلا أنها معرفة تدرك الأمور بالمعايشة ، ويمكن أن تنطبق هذه الصفة على الإله (عثتر) ، إذ كان هو إله جميع الناس في اليمن القديم(٥٧)

يرتبط وجود المجتمع الانساني بالعمل ، ومعرفة الطبيعة المحيطة به ، لكي يتمكن من استغلالها لغرض توفير متطلباته المعيشية ، وذلك لا يتحقق إلا من خلال الوعي ، والنشاط الموجه لتحويل مواد الطبيعة ،لأن المعارف العلمية للناس تنمو عن طريق الوعي والنشاط الإنساني (٥٨) ، من قبل الفرد ، بابتكاره للقوى المنتجة وتحسينها وتطويرها، لذلك

تتجسد منجزات الانسان العملية في أدوات العمل والانتاج، وعلى مر العصور استطاع الفرد ابتكار وتطوير معارف جديدة ، حتى بلغت درجة العلم . [٥٩]

لذلك يمكن القول إن المعارف مرت بتحولات عدة على مر التاريخ ، وفي كل فروعها وأنواعها ، إذ إن المعارف العملية تنتج من خلال العمل والممارسة من أجل تلبية حاجات الإنسان ، فهي تتأثر بالمؤثرات الطبيعية والاجتماعية في أطار كل مرحلة تاريخية ، وبناء على ذلك ، فمن أجل معرفة مراحل تطورها ، لابد من معرفة المؤثر النفسي والذهني الذي نشأت من خلاله المعارف [٦٠] .

لذا سنقوم بالبحث عن مراحل تطور المعارف العملية الانتاجية ، فضلاً عن المؤثرات الطبيعية المتصلة بالعمليات الانتاجية التقنية ، والطرق والاساليب المستخدمة في نقل المعارف الى الاجيال اللاحقة .

الهوامش:

[١] ريكمانز، حضارة اليمن قبل الإسلام، ص١٣٧.؛ الجرو ، دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم ، ص ١٢٩ .

[٢] الموسوي ، جواد، الميثولوجيا والمعتقدات الدينية ، ط١ (دمشق: رند للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٠م) ، ص ٢٨

[٣] الجرو ، دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم ، ص ١٢٩

[٤] الجرو ، دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم

[٥] ينظر : الموسوي ، الميثولوجيا والمعتقدات الدينية ، ص٢٥

[٦] ينظر : السقاف ، تطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء ، ص١٨٣

[٧] لوندين ، أ د غ ، العلاقات الزراعية في سبا ، ترجمة : ابو بكر السقاف ، مجلة دراسات يمنية ، العدد (٢) ، ١٩٧٩ ، ص٨٢ .

[٨] ينظر : السقاف ، تطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء ، ص١٩٣

[٩] العرامي، ديانة اليمن السرية، ص٦.

[١٠] ينظر : السقاف ، تتطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء ، ص ١٨٤– ١٨٥

[١١] الشيبة، تمهيد تاريخي...، ص٦٨.

(١٢) المصدر نفسه، ص٧٠.

(١٣) الشيبة، تمهيد تاريخي ، ص٧١.

(١٤) ينظر : السقاف ، تتطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء ، ص ١٨٦

(١٥) القحطاني، آلهة اليمن القديم ، ص١٨٩-٢١٥.

(١٦) السقاف، تطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء، ص١٨٦.

(١٧) ريكمانز، حضارة اليمن قبل الإسلام، ص١٣٦-١٣٧.

(١٨) غليون، نقد السياسة (الدين والدولة)، ص٢٣-٢٤.

(١٩) يعدّ آخر المكربين وأول ملوك سبأ حكم للفترة (٦٢٠-٦١٠ق.م) صاحب نقش صرواح أو النصر، ويعد من أهم وثائق تاريخ جنوب الجزيرة العربية، وهو وثيقة قومية مهمة، لأنه كشف لنا عن البعد القومي الوحدوي للأعمال التي قام بها (كرب آل وتر) من دمج الكيانات الصغيرة والكبيرة المنتشرة في كتاب كبير واحد ، ثم أعاد تنظيم العلاقات الاقتصادية والسياسية بين السلطة المركزية والقبائل، وجعلها أكثر ملاءمة ومواكبة للمتغيرات التي أحدثها في أجهزة الدولة. ينظر: البكر، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام "تاريخ الدول الجنوبية في اليمن، ص٢٢٢؛ الموسوي، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في اليمن القديم، ص٩٤-٩٥.

(٢٠) الجرو، الفكر الديني عند قدماء اليمنيين، ص٢٤١-٢٤٢.

(٢١) نقلا عن السقاف ، تتطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء ، ص ١٨٩

(٢٢) ينظر : السقاف ، تتطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء ، ص ١٨٩

(٢٣) الشيبة ، تمهيد تاريخي، ص٥٥.

(٢٤) ا ينظر : السقاف ، تتطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء ، ص ١٩٠

(٢٥) عبدالحليم، نور الدين، تاريخ حضارات مصر القديمة، (القاهرة: لا.م، ١٩٧٧م)، ص٧٨-٧٩.

(26) Pienne , Jacqueline, RSh, RShwt, Fdy, fdyt and the oriesthood in Ancient south Arab, p.sap, London , 1976, vol. 6 , p.138.

(٢٧) ينظر : الجرو ، دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم ، ص١٤٦

(٢٨) ماجد، مشير غائب، الأثر الفكري لحضارة الرافدين على الممالك اليمنية القديمة، رسالة ماجستير، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، بغداد، ٢٠٠٣م، ص٨٧.؛ الموسوي ، الميثولوجيا والمعتقدات الدينية ، ص١٤٨

(٢٩) صلاح ، عباس حسن ، وظائف المعبد وطقوسه في اليمن القديم قبل الاسلام ، مجلة الاستاذ ، العدد (٢٢) ، م١ ، ٢٠١٥ م ، ص٤٦٤ _ ٤٦٦

(٣٠) ينظر : الموسوي ، الاحوال الاجتماعية والاقتصادية .... ، ص١٦٢

(٣١) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ح٦، ص٢١٢.

(٣٢) مولر، والتر، الدين اليمني في بلاد مملكة سبأ، ترجمة: بدر الدين عردوكي، مراجعة: يوسف محمد عبدالله، (دمشق: دار الأهالي للتوزيع والنشر، ١٩٩٩م)، ص١٢٤؛ بيستون أ.ف. ل، ريكمانز، جاك، الفول، محمود ، مولر، والتر، المعجم السبئي، منشورات جامعة صنعاء، دار النشر بييترز، لوفان الجديدة ، مكتبة لبنان ، بيروت، ١٩٨٢م، ص٦٥.

(٣٣) ريكمانز وآخرون ، نقوش خشبية من اليمن ، (لوفان : منشوريات المعهد الشرقي ، ١٩٩٤) ، ص٤٣، كذلك ينظر : الجرو ، دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم ، ص١٦٦

(٣٤) بافقيه، موجز تاريخ اليمن القديم، ص٣٨.

(٣٥) صلاح ، وظائف المعبد وطقوسه في اليمن القديم ، ص ٤٦٩

(٣٦) ينظر : الجرو ، دراسات في التاريخ الحضاري لليمن القديم ، ص١٦١ – ١٦٢

(٣٧) ينظر : السقاف ، تتطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء ، ص ١٩٣

(٣٨) نلسن، الديانة العربية القديمة، ص١٩٠.

(٣٩) نقلاً عن السقاف ، تتطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء ص١٩٦.

(٤٠) الشيبة، تمهيد تاريخي ، ص٥٤– ٥٧

(٤١)ينظر : السقاف ، تتطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء ، ص ١٩٧

(٤٢) المصدر نفسه ، ص١٩٧

(٤٣) وهو العصر الذي بدأ الإنسان فيه باكتشاف الزراعة وتدجين الحيوانات وظهور القرى الزراعية المنظمة وتطور صناعة الخزف (الفخار) وظهور الآلات الحجرية المصقولة بدلاً من المشظاة، وقد استمر هذا العصر مدة (٣٠٠ سنة) للفترة (٨٠٠٠–٥٠٠٠ق.م) واذا كان العصر الحجري الحديث الباليولتيك أوربيا ، والميزوليت شامياً ، فأن النوليت رافديني شمالي والنيوليت هو العصر الحجري الحديث. ينظر: الماجدي، خزعل، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ ، (عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧م)، ص٢٧.

(٤٤) الماجدي، المصدر نفسه، ص٣٠.

(٤٥) الفرج، الجديد في تاريخ دولة وحضارة سبأ وحمير، م١، ص٢٥–٢٨.

(٤٦) يارنـد، جفـري، المعتقـدات الدينيـة لـدى الشـعوب، ترجمـة: أمـام عبـدالفتاح أمـام، سلسـلة عـالم المعرفة، الكويت، العدد (١٧٣) ، ١٩٩٣م، ص٤٨-٤٩

(47) Hofiner, M, Die vorisla mischin Religionen Arabiens in Die Religion , Altsyniuns, Althar abiens and per mandaer, stattgart, 1970, p.291.

(٤٨) الجرو، الفكر الديني عند قدماء اليمنيين ، ص١٣٥.

(49) Hofiner, Die vorisla mischin....., p.454.

(٥٠)ينظر : السقاف ، تتطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء ، ص ٢٠١

(٥١) ينظـر: الجـرو دراسـات فـي التـاريخ الحضـاري للـيمن القـديم ، ص١٣١ص ١٣٥ ؛ كـذلك ينظر : الموسوي ، الميثولوجيا والمعتقدات الدينية ، ص ٨٥ – ١٠٢

(٥٢)نقلاً عن السقاف ، تتطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء ص٢٠٢ .

(٥٣) نقلا عن السقاف ، تطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء ، ص ٢٠٥- ٢٠٦

(٥٤) الشيبة، تمهيد تاريخي، ص٥٨.

(55) Hofiner,Die Religion de Alts yriens, p.244 .

(٥٦) نقلاً عن السقاف ، تطور الحياة الفكرية .... ، ص٢٠٦-٢٠٧.

(٥٧) ينظر: الموسوي ، الميثولوجيا والمعتقدات الدينية ، ص١٧٥ – ١٨٠

(٥٨) يوكانـان ، أر ، أيـه ، الالـه قوة وسلطة ، تـر: شـوقي جـلال ، سلسـلة عـالم المعرفـة ، الكويـت ، العدد (٥٩) ، ٢٠٠٠م ، ص ٢٠ .

(٥٩) كيلـي ، ل.م . كوفـانزون ، الماديـة التاريخيـة ، (بيـروت : دار ابـن خلـدون ، ١٩٧٨م) ، ص ١٠٤-١٠٥

(٦٠) ينظر: السقاف ، تطور الحياة الفكرية لليمنيين القدماء ، ص ١٢١- ١٢٢